حَاوَرَهُ: ألطَّيِّب غَنَايم*

حوار شامل مع المؤرّخ والأكاديميّ الإسرائيليّ، شلومو ساند:

"أنا لا أقوّض بندًا أو جزءًا من الصّهيونيّة، بل أقوّض كامل روايتها وأزعزع كافّة أُسُسها. أنا أفنّد كافّة التّاريخ الصّهيونيّ، الذي أعتبره تاريخًا مشَوَّهًا، والرّواية الصّهيونيّة لا تستطيع الإفلات من قبضته".

ارتَبَط اسم شلومو ساند، على مدَار السّنوات الأخيرة، بصورة الأكاديميّ الكَافر، المُتَمَرِّد والعاقّ لمجتمعه، لدينه ولمعايير القطيع، إلاّ أنّ المتتبّع لأعمال ساند الأكاديميّة المتعدّدة، سيقع على مُؤَرِّخ جَادٍّ يُحَاوِل، من بين ما يحاوله، أن يَتَقَصَّى، كمؤرّخ، كتابَةَ المؤرِّخ وعمله، مؤطّرًا بذلك الخِطَاب النّقديّ الموجّه إلى ذات المؤرّخ وإلى آليّات عمله، متنقِّلاً بين عدّة محطّات نقديّة جادّة، مآلها كفرُ بكلّ ما ترعرع عليه من قيم شيوعيّة، يهوديّة، دينيّة وثقافيّة. ينقطع ساند في مرحلة متقدّمة من مراحل كتابته الأكاديميّة عن السّرب، وينفر عن القطيع، معلنًا استقلاليّة نقديّة تَنْدُرُ في الأوساط الأكاديميّة، خاصّة الصّهيونيّة، معلّلاً ذلك بقوله «لا أخاف من شيء، عندي تثبيت وظيفيّ في العمل.

شلومو ساند

لا أصبو لطموح أكاديميّ أسمى من منصبي، لذلك لا أخاف بصق الحقيقة في وجه المجتمع الإسرائيليّ بكافّة أطيافه».

شلومو ساند هو ابن لوالدين يهوديّين، وُلِدَ في مدينة لينتس

* شاعر ومترجم – باقة الغربية.

«أشعر ان الوضع يشبه حال الستالينيّة المضادّة في الاتّحاد السوفيتي، في فترة بريجينييف، إذا أردت أن أكون محدّدًا أكثر. أعتقد أنّه منطقيّ جدًا تلقّي كافّة هذه العدوانيّة، الغضب والكراهيّة الموجّهة ضدّي وضدّ ما أكتب. لست متفاجئًا. فأنا لا أقوّض بندًا أو جزءًا من الصّهيونيّة، بل أقوّض كامل روايتها وأزعزع كافّة أُسُسها».

في النّمسا، لوالدين ناجيين من المحرقة النّازية، حيث فرّا من بولندا. أوّل سنتين قضاهما ساند في حياته كانا في مخيّم لإبادة اليهود أُطْلِقَ عليه اسم «مَحَنِيه هعكوريم»، أي «مخيّم المجتثّين/ المهجّرين». حينما هَاجَرَ والداه إلى الدّولة حديثة العهد، إسرائيل، عام ١٩٤٨، في قلب العاصفة التي تلمّ بالبلاد، كان شلومو الابن البكر، لم يتعدّ بعد السّنة الثّالثة من حياته. استقرّت عائلته في مبانٍ مؤقّتة جنوب يافا، في بيت قَطَنَه عَرَبٌ قبل اندلاع الحرب وتمّ تهجيرهم. كان والده شيوعيًّا ماركسيًّا عقائديًّا، كان له كبير الأثر على صقل هويّة ابنه شلومو. لم يواصل شلومو دراسته، حيث تَرَكَ مقاعد الدّراسة حينما كان ابن ١٦ عامًا، ساعيًا للعمل ليؤمّن لقمة العيش وليساند عائلته الفقيرة. مارَسَ ساند الكثير من الأعمال والحرف. خَدَمَ في الجيش، وفي عام ١٩٦٧، كانَ مع الجنود الذين احتلّوا القدس. تجربة قاسية مؤثّرة تركت أثرًا وصدمة كبيرتين على نفسيّته. بعد إتمامه الخدمة العسكريّة، احتَارَ ساند فيما يفعله، فقامَ «على الطّريقة البولنديّة»، كما يقول، باللجوء إلى الدّراسة واستكمال ما خسره في تعليمه الثّانويّ، ليصدر شهادة توجيهيّة، تؤهّله الدّخول إلى الجامعات الإسرائيليّة.

انتَسَبَ ساند إلى جامعة تل-أبيب، طالبًا جامعيًّا في قسمَي الفلسفة والتّاريخ العامّ، لأنّه لم يُقْبَل في المواضيع التي أرادَها، إلاّ أنّ الصّدفَةَ خَلَقَت للطالب الشّاب، ساند، فرصةً ليستقي أدوات نقديّة علميّة أثرَتْهُ. حينما أنهى دراسَتَه، وبَاشَرَ البحث عن منح لإكمال مشواره العلميّ، لدراسة اللقب الثّاني، حَصَلَ، وبالصّدفة مرةً أُخرى، في الوقت الذي بدَأَ فيه يتعلّم الألمانيّة لينتسب لجامعة ألمانيّة، حَصَلَ على منحة من دولة فرنسا، حيث أكمل مشواره الأكاديميّ هناك، ليحصل على شهادة الماجستير والدكتوراه في موضوع التأريخ من جامعة باريس الثامنة في فرنسا.

كتابه الأخير، «اختراع أرض إسرائيل»، كسابقه، « اختراع الشّعب اليهوديّ»، أثَارَ ضجّة كبيرةً في أوساط الأكاديميّين والمثقّفين اليهود، الإسرائيليّين وغير الإسرائيليّين، فعلى سبيل المثال، لا الحصر، كَتَبَ بروفسور يوآف جيلبر (مؤرّخ صهيونيّ لتاريخ اليهود الحديث) مقالةً نشرهَا في صحيفة هـآرتس اليوميّة، كانَت الموضوع الأوّل الذي أثَارَه بروفسور ساند في حواري معي، سائلاً إيّاي إن كنت قد قرأته، مبديًا عدم ارتياح لحملة التهجّمات التي ما زالت تنهال عليه. وبذلك انتهزت الفرصة لافتتاح حوارنا بردود الفعل العنيفة المعادية التي عادةً ما يتلقّاها مع نشره كلّ جديد بحثيّ، ساند يفضّل العودة لمقالة جيلبر الأخيرة:

«هذا المحاضر في جامعة حيفا، يعتبر مؤرّخًا غير جادٍّ، أوّلاً هو صهيونيّ متطرّف وليس صهيونيًّا معتدلاً، وما هو غريب أنّه يجادلني في مقالته حول مواضيع هي ليست من تخصّصه كنشوء الشّعوب والمجتمعات والقوميّات، لا أعلم إن كنت سأردّ عليه، أنا في حيرة من أمري. هو متخصّص في حرب ١٩٤٨. هو لا يذكر بتاتًا العمليّة الاستعماريّة/الكولونياليّة ولا يذكر حتّى عام ١٩٤٨. للتوّ قرأت ردود الفعل التي كَتَبَهَا القرّاء، يا إلهي!».

أيّ شعور يخالجك حينما تصطدم بردود فعل معادية وقاسية؟

«أشعر كالستالينيّة المضادّة في الاتّحاد السوفيتي، في فترة بريجينييف، إذا أردت أن أكون محدّدًا أكثر. أعتقد أنّه منطقيّ جدًا تلقّي كافّة هذه العدوانيّة، الغضب والكراهيّة الموجّهة ضدّي وضدّ ما أكتب. لست متفاجئًا. فأنا لا أقوّض بندًا أو جزءًا من الصّهيونيّة، بل أقوّض كامل روايتها وأزعزع كافّة أُسُسها. أنا أفنّد كافّة التّاريخ الصّهيونيّ، الذي أعتبره تاريخًا مشَوَّهًا، والرّواية الصّهيونيّة لا تستطيع الإفلات من قبضته. فبعد سنوات طويلة في جهاز التّربية والتّعليم في إسرائيل، وبعد سنوات من الدّراسة

«تنصّ الصّهيونيّة على أنّ لليهود حقًا في هذه البلاد منذ ألفي عام، وعادوا إليها، بسبب حقّهم التّاريخي. هذه هي الفكرة الصّهيونيّة. الآن، من يؤمن بحقّ تاريخيّ على رقعة جغرافيّة معيّنة بعد أكثر من ألفي عام، فهو إمّا أن يكون مجنونًا وإمّا أن يكون غبيًا. هذه الفكرة خطيرة جدًا».

الجامعيّة، لا يمكننا أن ننذهل من المفاجأة والصّدمة التي يتلقّى بها القارئ الإسرائيليّ أطروحات كمثل التي أقدّمها عَبْرَ مؤلّفي الأخيرين. لا أتفاجأ من ردود فعلهم.

ألا يؤلمك العمى الذي يميّز ثقافة القطيع؟

في كتابي الأخير (اختراع أرض إسرائيل)، حاولت أن أفهم لماذا خَسِرَ اليَسَار الإسرائيليّ كافّة معاركه السّياسيّة والأيديولوجيّة في دولة إسرائيل على مدار السّنوات الأخيرة. كان من المنطقيّ بعد انتصار إسرائيل في حرب ١٩٦٧ أن تعترف إسرائيل بدولة فلسطينيّة وتنسحب من المناطق المحتلّة. أسأل في كتابي الحديث عن السّبب الكامن وراء الهزائم المتتالية لليسار الصّهيونيّ مقابل نجاح المستوطنين في بقائهم في المناطق المحتلّة. أحاول أن أفهم وأتقصّى جذور المنطق الصّهيونيّ، الذي يعتمد على الحقّ التّاريخيّ لليهود على فلسطين/أرض إسرائيل. فليكن معلومًا لديك، أنّه في التّاريخ عمومًا، أوروبا هي من طَرَحَت فكرة الحقوق التّاريخيّة، وليس مجرّد أوروبا بل أوروبا اليمينيّة، حيث بدَأَ الأمر مع مطالبة الألمانيّين بحقّهم على أراضي الألزاس واللورين، حيث اعتمدوا على مبدأ الحقّ التّاريخيّ. تنصّ الصّهيونيّة على أنّ لليهود حقًا في هذه البلاد منذ ألفي عام، وعادوا إليها، بسبب حقّهم التّاريخي. هذه هي الفكرة الصّهيونيّة. الآن، من يؤمن بحقّ تاريخيّ على رقعة جغرافيّة معيّنة بعد أكثر من ألفي عام، فهو إمّا أن يكون مجنونًا وإمّا أن يكون غبيًا. هذه الفكرة خطيرة جدًا. تَخَيَّل مثلاً أن يطالب المسلمون بعودتهم إلى إسبانيا لأنّهم احتلّوها فترةً ما، تَخَيَّل مثلاً أن يطالب الهنود الحمر بمنهاتن في الولايات المتّحدة الأميركية التي كانت لهم قبل ٤٠٠، وأن يطالبوا بطرد البيض والسّود جميعًا من هذه المنطقة. الصّربيّون ادّعوا أنّ كوسوفو تابعة لهم، لماذا؟ لأنّه قبل مائتي عام، ليس ألفين، كانت الغالبيّة في كوسوفو مسيحيّة أرثوذكسيّة تتحدّث بلهجة صربيّة. الصّربيّون على حقّ من ناحية أنّ آباء آبائهم كانوا غالبيّة في كوسوفو، الأمر الذي أدّى إلى ارتكاب مذبحة بحقّ المسلمين الذي صاروا أكثريّة. وعليه، أكرّر، من يؤمن بحقّ تاريخيّ لشعب عاشَ قبل أكثر من ألفي عام في هذه البلاد، فإمّا أن يكون معتوهًا، إما أن يكون غبيًا وإمّا أن يكون إنسانًا غير نزيه. أعتقد أنّه لا يوجد حقّ تاريخيّ لليهود على هذه البلاد، التي يقطنها اليوم إسرائيليّون وفلسطينيّون. وليكن واضحًا بذات الآن، أنّني لم أتنكّر لحقّ الإسرائيليّين اليهود الذين يعيشون اليوم في إسرائيل، أن يتواجدوا ويعيشوا هنا وأن تكون لهم سيادة مستقلّة. لكنني في الآن ذاته، لم أؤمن طيلة حياتي بوجود حقّ تاريخيّ لليهود على هذه الأرض. منذ أن وعيتُ. منذ شبابي المبكّر.

محطّات حياتك، التي تكاد تكون متناقضة بين أجزائها المختلفة، ثريّة ومثيرة، حيث وُلِدتَ لوالدين ناجين من المحرقة النّازية، عشت في مخيّم للإبادة الجماعيّة لليهود، انتقلتَ حينما كنتَ ابن سنتين إلى الدّولة الحديثة، عام ١٩٤٨، وعام ١٩٦٧ شاركتَ في حرب الأيّام السّتّة كجنديّ شاركَ في احتلال القدس. هذه المحطّات صَقَلَت فِكْرَك وشخصيّتك، يساريّتك وتمرّدك. أليس كذلك؟

بالطّبع. لم أعش في أحياء الإسرائيليّين الذي آمنوا بذاتهم. ترعرعت في أحياء فقيرة، تحكمها الضّائقة الماديّة والاجتماعيّة، في يافا. كان والدي شيوعيًا، قبل وصوله إلى إسرائيل، وأنا انتسبت إلى الشّبيبة الشّيوعيّة في إسرائيل، حيث تعرَّفتُ على الشّاعر محمود درويش. عام ١٩٦٧، حينما كنتُ جنديًا محتلاً لمدينة القدس، هذا العام وهذه الحرب، جعلاني إنسانًا سياسيًا، حيث أنّ انتسابي للشبيبة الشّيوعيّة لا يعني أنني كنت سياسيًا. بعد ١٩٦٧ مررت بتجربة جعلت مني راديكاليًا، هذه الحرب زعزعتني. كنت ابن عشرين عامًا تقريبًا. أثّرت هذه الحرب عليّ، على أكثر من مستوى: الأوّل

جَعَلتني راديكاليًا بكلّ ما يتعلّق بالاحتلال الإسرائيليّ، وأيضًا أدّت بي إلى الانقطاع عن الشّيوعيّة وهجرانها. حيث أنّ احتلال القدس، تلاه احتلال براغ على أيدي القوات الرّوسية في كانون الثّاني من عام ١٩٦٨ . هذان الاحتلالان، الاحتلال الإسرائيليّ للضفّة ولغزّة، والاحتلال السوفياتيّ لبراغ، بَلْوَرَا لديّ في تلك الأيّام عقائد وأيديولوجيّة لم تكن بأيّ شكل من الأشكال صهيونيّة.

يدور الحديث عن مرحلة عصيبة ومأزومة من مراحل حياتك، حيث أنّه ليس من السّهل بتاتًا أن تكفر بكلّ معتقداتك التي آمنت بها وعملت لأجلها حتّى هذه اللحظة.

بالتأكيد، فقد قاطَعَني والدي مدّة سنة ونصف السّنة، حيث أنّه كان شيوعيًّا وغضب من هجراني لهذه العقيدة. وفي هذا السّياق، أقول لَكَ أنّ محمود درويش قاطَعَني في هذه الفترة، بسبب تركي الشّيوعيّة، غضب عليّ كثيرًا، حينما انتسبت إلى حركة «متسبين». في التّاريخ الشّيوعيّ، كلّ من يتركهم، يتنكّرون له. ولاحقًا، كلّ هؤلاء المتنكّرين يتركون هم بأنفسهم الشّيوعيّة، ليتنكّر له من بقوا، وهكذا دواليك.

أعودُ إلى علاقتك مع محمود درويش في هذه الفترة، حيث أنّ حماسًا كبيرًا يبدو عليك حينما تتحدّث عن الشّاعر الرّاحل، في كتاباتك، أحاديثك وحواراتك.

درويش غضب كثيراً عليّ، كثيراً. تعرّفت على محمود درويش قبل حرب ١٩٦٧ ، قبل الحرب اعتدت السّفر إلى حيفا، لمقابلته. وتوطّدت علاقتنا بعد هذه الحرب. شعرت بالسّوء والضّرر الكبيرين نتيجةَ هذه الحرب، التي شاركتُ فيها. شعرت بالذّنب، خاصّةً بعد أيلول ١٩٦٧ ، بعدما كنتُ شاهدًا على مقتل مسنّ فلسطينيّ. قدمتُ بعد الحرب إلى محمود درويش لأطلعه على يأسي، وعلى إصراري على السّفر إلى خارج البلاد. ألحّ عليّ محمود درويش بالبقاء. بتُّ عنده، عندما أفاقني في ظهيرة اليوم التّالي قرأ لي قصيدة «جنديّ يحلم بالزّنابق البيضاء»، التي كتبها عنّي.

حاول تشجيعي، هذه هي القصيدة. أنا بطل القصيدة (يقولها بفخر بادٍ بنبرته). ظللت على اتّصال معه حتّى هذه الفترة (بعد الحرب بقليل)، حتّى عام ١٩٦٨ حين احتلال براغ، حيث قطعتُ علاقتي مع الشّيوعيّة، ومنذ تلك اللحظة لم يعد يرغب برؤيتي.

يصمت ساند قليلاً، ويندفع مرّة واحدة: «على فكرة، لم تنقطع علاقتنا بشكل نهائيّ. خلال مكوثي في باريس، تعرّفت على محامية برتغاليّة الأصل، كانت تعمل مع منظّمة التّحرير الفلسطينيّة في تونس عام ١٩٦٨ .»

أحاول الاستفسار عن اسمها، لكن ساند يفضّل عدم التّفاعل مع السّؤال.

«في يوم ما، قبيل سفرها إلى تونس، طلبت منها تبليغ سلاماتي لمحمود درويش، قولي له: لك سلام من الجنديّ الذي أحبّ الزّنابق البيضاء. حينما عادت بعد أُسبوع، قالت لي بأنّها لم تنجح بالالتقاء معه، لكنها أخبرت وسيطًا ثالثًا بتبليغ درويش سلامي.

بنبرة أعلى، يصرّح ساند: «على فكرة، لقد أرسل لي جوابًا لهذا السّلام. بعد هذه الحادثة بعدّة سنوات، وأيضًا أثناء مكوثي في باريس أيضًا، حينما ألقيت محاضرة مشتركة مع ليلى شهيد، وإن لم أكن مخطئًا، فإنّ هذه الحادثة جَرَت عام ٢٠٠٧ ، على ما أعتقد. كان ذلك في المكتبة الوطنيّة في باريس. بعد إنهاء محاضرتي، سألتني عن هويّتي، من أنا، من أكون، لِمَ لَمْ أسمع عنك حتّى اليوم. أجبتها: «أنا الجنديّ الذي أحبّ الزّنابق البيضاء». صَوَّبَت أنظارها نحوي بدهشة وبتحديق، وقالت: «لا، مش معقول». استدارت، تناولت هاتفها، وقامت على الفور بالاتّصال بمحمود درويش، الذي كان في عمّان، أو رام الله، لا أذكر. سألَتْهُ، من هو ذلك الجنديّ الذي يحبّ الزّنابق البيضاء؟ أنا أقف الآن إلى جانب شخص ما يدّعي أنّه هو الجنديّ الذي أحبَّ الزّنابق البيضاء. تكلّما بالعربيّة عدّة دقائق. بعدها استدارت نحوي وقالت لي: «نعم، محمود يصادق على ما قلتَه.» تعطيني التلفون، من الطّرف الآخر، محمود درويش يقول لي: «شلومو، كيف حالك؟ لماذا لم تقدم لزيارتي في رام الله». فأجبته: «لا أستطيع، منذ أن صرتَ شاعرًا كبيرًا قوميًّا، خجلتُ». قال لي «ليس لطيفًا ما تقول، اجتهد لتزورني».

سألتهُ: «أما زلتَ جميلاً بهيّ الطّلعة؟»، فأجابني: «أوووه، أنا مُسِنٌّ، مريضٌ وقبيح».

وعدته بالزّيارة».

يشدّد ساند على أن ليلى شهيد كانت شاهدة على هذه الحادثة.

«ما أن مضى شهر أو شهران على تلك المكالمة، أصدرتُ كتابي « اختراع الشّعب اليهوديّ». بعد سنة من تلك المكالمة التقيت بليلي شهيد في باريس، والتي فاجأتني بقولها: «اسمع، محمود درويش يقول لكَ بأنّه فخور بكَ على إصدارك هذا الكتاب الشّجاع». درويش قَرَأَ مقالة المؤرّخ والصّحافيّ توم سيغف، التي تنَاَولت كتابي هذا، في صحيفة «هآرتس». ودرويش هو الذي طَلَب من مركز مدار للدراسات الإسرائيليّة أن يترجموا هذا الكتاب إلى العربيّة».

بانفعال خاصّ يعود ساند ويصرّح لي: «كان مهمًّا بالنّسبة لي أن يقول درويش عنّي ما قالَه. هذا مهمّ بالنّسبة لي، لأنني أحببتُهُ.»

«حصلت على شهادة البجروت فقط عام ١٩٧١، حينما يئستُ من حركة متسبين. كنت شابًا يسكن في تل-أبيب، ودرويش الذي كَبُرَنِي بأربع-خمس سنوات، كان يسكن في حيفا. بالنّسبة لشابّ، هذا الفارق في السّن بيني وبينه، يُعْتَبَرُ فارقًا كبيرًا، ومنه تعلّمتُ الكثير. بسبب محمود درويش توقّفتُ عن محاولاتي الشّعريّة، مُدْرِكًا أنّني لن أصيرَ شاعرًا كبيرًا مثله.»

ما السّر الكامن وراء محبّتك هذه؟

اسمع، كنت إسرائيليًّا شابًّا، رغبتُ بأن أصيرَ شاعِرًا، لم أكن متعلِّمًا، حتّى شهادة البجروت (توجيهيّ) لم تكن بحوزتي، حصلت على شهادة البجروت فقط عام ١٩٧١، حينما يئستُ من حركة متسبين. كنت شابًّا يسكن في تل-أبيب، ودرويش الذي كَبُرَنِي بأربع-خمس سنوات، كان يسكن في حيفا. بالنّسبة لشابّ، هذا الفارق في السّن بيني وبينه، يُعْتَبَرُ فارقًا كبيرًا، ومنه تعلّمتُ الكثير. بسبب محمود درويش توقّفتُ عن محاولاتي الشّعريّة، مُدْرِكًا أنّني لن أصيرَ شاعرًا كبيرًا مثله.

لم أبِت عنده فقط، بل هو أيضًا باتَ ليلةً في شقّتي المستأجرة الصّغيرة جدًا، غرفة واحدة في تل-أبيب، تقع بين تقاطع شارعي بوجراشوف وبين يهوداه، وكما هو معلوم لديك، بسبب الحبس المنزليّ الذي كان مفروضًا عليه، كان صعبًا للغاية أن يصل من حيفا إلى تل-أبيب، طلب استصدار رخصة من الشّرطة تسمح له بالسّفر إلى تل-أبيب، للمشاركة في أمسية شعريّة لشعراء شبّان في جامعة تل-أبيب. لم يحصل على إذن. قلتُ له إنّ بإمكانه المبيت في غرفتي. قدم إلى غرفتي الصّغيرة، وتوجّهنا معًا إلى الجامعة. وكان من بين المشتركين شعراء وشاعرات شبّان وشابّات، في أوّل طريقهم الأدبيّة، لا أنسى على سبيل المثال أنّ الشّاعرة يونا فولاخ كانت من بين المشتركين، وأيضًا الشّاعر مئير فيزلتير.

أثناء استقلالنا الباص من غرفتي باتّجاه الجامعة، سألني درويش لماذا لا أدرس في الجامعة، فخجلتُ أن أقول له أنني غير حاصل بعدُ على شهادة البجروت، لأُقبل للجامعة.

بالنسبة لسؤالك عن سرّ علاقتنا، هل تعلم؟ أنا لا أدري بتاتًا ما سرّها. لكن، بنظرة ثانية، في تلك الحقبة لم يكن كثير من الإسرائيليّين حادّين بلهجتهم النّقديّة بتلك الطّريقة، وعميقًا عميقًا، محمود درويش لم يكن عنصريًّا، على الرّغم من كونه ينتمي لعائلة لاجئين، وليس عائلة ظلّت في الأراضي المحتلّة، لم يكن يكنّ أيّ كراهيّة لليهود أو للإسرائيليّين. مذهل! لم يكره. لم يعرف الكراهية.

هو أدرك منذ لقائنا الأوّل، أنّني لا أكنّ أيّ تمييز بين عربيّ ويهوديّ، بين فلسطينيّ وإسرائيليّ. والأمر ينطبق على كلينا، أنا ودرويش. التّربية الشّيوعيّة الأُمَمِيَّة المشتركة، لي ولدرويش، كانت أساسًا لعلاقتنا. حبّ الاستطلاع والفضول اللذان اتَّسَمَ درويش بهما، شدّاني كثيرًا.

لم نتحدّث فقط عن السّياسة، وإنّما أيضًا عن النّساء، والكثير من الأُمور الأخرى. ودرويش عمليًّا هو من عَلَّمَني شرب الكحول، حتى قبيل التقائي به، لم أكن أرغب شرب الكحول بشكل خاصّ. غالبيّة جلساتنا احتوت على مشروب كحوليّ. كم تمنّيت أن أستطيع الشّرب مثله. أووه. كنّا نشرب ونتسامر، كان بمقدورنا التّحدّث عن كلّ قضيّة وموضوع، في إحدى الليالي، وجّهت له سؤالا، في ساعة صفاء ذهن مطلق: «قل لي محمود، كيف تطيق كلّ هذا الحبس، وكل القيود وكلّ إثبات الحضور القسريّ، كيف تطيق هذا؟»، هل تعلم ماذا أجابَنِي: «سأسألك السّؤال العكسيّ، كيف تطيق أنتَ كل هذا؟». سألته: «ما قصدك؟». أجابني: «شَعْبُكَ يبصُقُ عليكَ، يبصقُ على آرائك، شعبيَ أنا يحبُّني ويقدّرني، فمن منّا يعاني أكثر؟».

هذه هي ذاكرتي مع محمود درويش، قصيرة ومكثّفة. أنا متأسّف على وفاته قبل أن أنجحَ في الوصول إليه إلى رام الله وزيارته».

لم تزره في رام الله؟

عليك أن تفهمني، الإنسان صار مهمًّا، خجلتُ منه. ودائمًا خطر ببالي في هذا السّياق كل أولئك الشّعراء الصّغار الإسرائيليّين الذين يقدّرونه ويتملّقون له. أنا خجلتُ منه، ماذا تريد مني؟ لكنني متأسف للغاية لأنني تقدّمتُ في السّن. هل تعلم، يمكنني أن أصوغ الجواب بطريقة مجازيّة أُخرى، على الرّغم من عدم التقائنا وجهًا لوجه، كل هذه الفترة الطّويلة، إلاّ أنّني التقيت به، التقيتُ به عَبْرَ

«أثناء انكبابي على تأليف «اختراع الشّعب اليهوديّ» لم أفكّر بتاتًا بمعالجة قضيّة حقّ اليهود في الأرض. لماذا؟ لأنّني لم أؤمن مسبقًا بوجود أيّ حقّ كهذا لليهود في ما يسمّونه أرض إسرائيل. ألّفتُ الكتاب من منطلق فهمي الآخذ في الازدياد بأنّه عمليًا لم يكن هناك شعب يهوديّ، بالمفهوم المعاصر للكلمة.»

كتابي «اختراع الشّعب اليهوديّ». كلّ ما أعمله الآن هو نوع من اللقاء. لذلك بعد أن قالت لي ليلى شهيد بأنّه فخور بي، واصلتُ الكتابة في نفس الاتّجاه، شهادته شجّعتني. فلتذكر جيّدًا، أنّه، عميقًا، محمود درويش، ينتمي إلى شريحة الفلسطينيّين الذين لا يكنّون مقدار ذرّة من الكراهيّة.

يقطع ساند تواصل حديثه بحادثة من الماضي، جمعته بدرويش:

«على فكرة، أتذكّر الآن محادثة دارَت بيني وبين درويش حول الكراهية، قال لي: «أنا لا أكره، هل تعلم لماذا؟» سألته: لماذا؟ قال: لأن معنى الكراهية العميق هو تمنّي الموت لمن تكره، وهذا غير موجود في قاموسي.

* * *

المؤلّف الأخير لشلومو ساند «اختراع أرض إسرائيل؟»، الصّادر عن دار النّشر، كنيرت زمورا–بيتان، والواقع في ٣٢٠ صفحة، أثار هو أيضًا ضجّة كبيرة وسخطًا بين أوساط المثقّفين الإسرائيليّين.

ماذا تحاول أن تثبت في كتابك الأخير، «اختراع أرض إسرائيل»؟

«دافع هذا الكتاب هو الرّدّ على نقّاد إسرائيليّين وغير إسرائيليّين، في أنحاء العالم، ادّعوا بأن كتابي السّابق «اختراع الشّعب اليهوديّ» جاءَ ليفنّد العلاقة القائمة والعميقة بين اليهود وبين ما يسمّى أرض–إسرائيل. على الرّغم من أنني في الأصل، أي أثناء انكبابي على تأليف «اختراع الشّعب اليهوديّ» لم أفكّر بتاتًا بمعالجة قضيّة حقّ اليهود في الأرض. لماذا؟ لأنّني لم أؤمن مسبقًا بوجود أيّ حقّ كهذا لليهود في ما يسمّونه أرض إسرائيل. ألّفْتُ الكتاب من منطلق فهمي الآخذ في الازدياد بأنّه عمليًا لم يكن هناك شعب يهوديّ، بالمفهوم المعاصر للكلمة. مع كتابي هذا كنت كطفل استيقظ من قيلولة. إذا كان الفرنسيون شعبًا، الإيطاليّون شعبًا، الألمانيّون شعبًا، فكيف لليهود أن يكونوا شعبًا؟ لا يمكننا تطبيق الكلمة شعب على اليهود. ماذا أقصد؟ نستخدم كلمة شعب فرنسيّ بسبب وجود جماعة بشريّة تتكلّم الفرنسيّة، الأمر ينطبق على الشّعب الألمانيّ، البرتغاليّ، والمزيد من الشّعوب، رابطهم ليس عرقيًّا أو وراثيًّا (جينيًّا). تكمن المشكلة عند اليهود بأنّه لم تكن لهم لغة مشتركة على مرّ العصور، وليس لهم لغة مشتركة حتّى اليوم.

من المهمّ بالنّسبة لي أن يفهم القارئ العربيّ أنّني لا أشكّك بأنّ الصّهيونيّة نَجَحَت بخلقِ/إنتاج شعب يهوديّ في «أرض–إسرائيل»، لكنها لا تكتفي بذلك إذ تَدَّعِي وجود شعب يهوديّ في الشّتات، في أرجاء العالم، وتطالب بهذه الأرض لكافّتهم. أي أنّ هذه الأرض، هذه الدّولة، تابعة لكافّة يهود العالم.

وهنا يربط شلومو ساند بين ادّعاءاته وبين مناهضيها معلّلاً الأمر:

«لماذا لا يحبونني هنا؟ لأنّني أقول أنّ الصّهيونيّة خلقت هنا واقعًا لا يمكننا أن نعود به إلى الوراء، لم تنجح الصّهيونيّة بلمّ كافّة يهود العالم والإتيان بهم إلى فلسطين، لكنها بذات الآن نَجَحَت بخلق شعب ذي مواصفات وممارسات يهوديّة مشتركة لأبنائه. في كتابي «اختراع الشّعب اليهوديّ» فسّرت لماذا لم يكن هناك شعب يهوديّ، وادّعيت أنّ ما كان هي ديانة يهوديّة، ذات مكانة مهمّة جدًا في الثّقافة الغربيّة، وحينما أقول ثقافة غربيّة أضمّ الدّين الإسلاميّ. الدّيانة اليهوديّة هي الأساس للمسيحيّة وللإسلام، لكنها ديانة وليست شعبًا.

بدون الاستعمار الصّهيونيّ لما كان هناك شعب فلسطينيّ. ربّما لو لم يكن الاستعمار الصّهيونيّ لكان هناك شعب سوريّ–فلسطينيّ، أو أُمّة بشكل آخر. قال لي أحدهم بأنّني إذا كنت على هذا القدر من الشّجاعة بقول الحقيقة في وجه اليهود، فيتوجّب عليّ قولها بذات القدر للفلسطينيّين وللعرب.

«أتعلم شيئًا؟ إذا عثرتَ على كتاب أكاديميّ واحد يصف عمليّة التّهجير التي قام بها الرّومانيّون ضدّ اليهود، سأستقيل من مهنتي في الجامعة! كتَبَ صائغو وثيقة الاستقلال أنّ الشّعب اليهوديّ هُجِّرَ بالقوّة، وهذا أمر غير صحيح. لم يكن أيّ تهجير. بدأت بالبحث عن كتب التّهجير ولم أعثر. إذا لم يكن هناك تهجير»

حينما كتَبَ منصف المرزوقيّ مقالته حول كتابي ونشرها في موقع الجزيرة، طالَبَ بنبش التّاريخ العربيّ من قبل العرب، كما نَبَشَ ساند في التّاريخ اليهوديّ. يجب مواجهة الحقيقة دومًا، والإصرار عليها وعدم الانحناء. الحقيقة لا يمكن أن تُغَطَّى. أتَمَنَّى أن يتَواجَد مؤرّخون فلسطينيّون شجعان، لا يقدمون على البحث عن أصولهم في الشّعب الفلستيّ (پلشتيم – مأخوذة من التناخ – الكتاب المقدّس لليهود) أو في الشّعب الكنعانيّ العتيق، ويدركون أنّ سكّان البلاد الفلسطينيّين هم سكّان قدماء جدًا لهذه البلاد.

يستطردُ ساند قائلاً: «أتعلم شيئًا؟ إذا عثرتَ على كتاب أكاديميّ واحد يصف عمليّة التّهجير التي قام بها الرّومانيّون ضدّ اليهود، سأستقيل من مهنتي في الجامعة! كتَبَ صائغو وثيقة الاستقلال أنّ الشّعب اليهوديّ هُجِّرَ بالقوّة، وهذا أمر غير صحيح. لم يكن أيّ تهجير. بدأت بالبحث عن كتب التّهجير ولم أعثر. إذا لم يكن هناك تهجير، ينطلي الأمر على سؤالين: الأول، ماذا جرى للسكّان المحليّين/الأصلانيّين؟ الثّاني، كيف كان هناك كمٌّ كبير من اليهود في أنحاء العالم؟ على السّؤال الأوّل أَجَبْتُ بواسطة وثائق تاريخيّة، وتوصّلت إلى أنّ المجتمع المحليّ الذي كان يهوديًا بغالبيّته – طيلة الوقت تَوَاجَدَ الوثنيّون –، جزء من المجتمع اليهوديّ في المرحلة الأُولى تَنَصَّرَ، وفي مرحلة متقدّمة أكثر، ولكن بسرعة كبيرة، منذ أن قَدِمَ الإسلام البلاد، ابتداءً من القرن الثّامن، غالبيّة المجتمع تَأَسْلَمَت. بناءً على ما ذكرتُ، هناك احتمال بأنَّ عضوًا في حركة حماس من الخليل، ينحدر من عائلة ذات صلة قربى مع من يسمّون العبرانيين القدامى، أكثر من غالبيّة اليهود في العالم. فلنتذكر أنّ الشّعوب عبارة عن مزيج واحد كبير. الفلسطينيّون كذلك الأمر، مزيج من هجرات وأصلانيّين ومراحل متعدّدة أحدثت تغييرات على المجتمع ذاته.

ماذا يَتَرَتَّبُ على هذه النّتيجة؟

لا شيء. لا شيء. لا شيء يترتّب على الأمر. لأن الشعب الفلسطينيّ هو وليد الاستعمار الصّهيونيّ، صار الشّعب الفلسطينيّ ذا تاريخ خاصّ ومتميّز. بدون الاستعمار الصّهيونيّ على وجه الخصوص، والاستعمار الغربيّ على وجه العموم، فإنّ غالبيّة ما يُسَمَّى بالشّعوب المعاصرة في العالم الخارج–أوروبيّ لم تكن قائمة وفقًا لحدودها اليوم. من خَلَقَ العراق الحديث غير الاستعمار البريطانيّ؟ من خَلَقَ سورية غير الاستعمار الفرنسيّ؟ صحيح أنّه في التّربية العميقة المتجذّرة التي أنتجَهَا صدّام حسين وسابقوه العراقيّون يدّعون أنهم ورثة بابل العتيقة، هذا ليس جادًا. فكما أنّ اليهود ليسوا ورثة يهودا القديمة، العراقيّون ليسوا ورثة بابل، والإيطاليّون ليسوا بورثة يوليوس قيصر، والمصريّون ليسوا بورثة الفراعنة، حيث يدور بينهما فرق اجتماعيّ شاسع ولا نقاط التقاء بينهما. في كافّة الحالات المجتمعات تغيّرت بشكل شبه كلّيّ. الفرنسيّون أيضًا لم يكونوا من الشّعب الغالي. لكن الفرنسيين بغالبيتهم اليوم، على خلاف السّابق، يعلمون أنّهم ليسوا من الشّعب الغالي. فقط قبل ٨٠ سنة قرّرت كافّة هذه الجماعات/الشّعوب أن تعود إلى جذورها المتخيّلة. من يؤمن من اليهود بأنّه من يهودا، ومن يؤمن من الفلسطينيّين أنّه من الفلستيّين، هذا هراء برأيي. الشّعوب هي منتوج حديث العهد، وهنا أودّ بمطالبة كل قارئ وقارئة بالتّفكير في معنى شعب قبل ألفي عام، قبل ألف عام، في الوقت الذي لم تتواجد فيه كتب مطبوعة، في ظلّ انعدام التّعليم المنهجيّ، في ظلّ تواجد لهجة مختلفة في كلّ منطقة جغرافيّة، فكما أنّ سكّان الجليل كانوا أقرب ثقافيًا إلى سكّان جنوب لبنان من قريهم إلى سكّان يافا، ثقافيًا وحضاريًا، والقدس أيضًا. حتى بعد ١٩٤٨، المنشورات التي تصدر في الجليل والجولان وجنوب لبنان أقرب إلى سورية منها إلى يافا والقدس. أعلم أن كثيرًا من

« لكنني أكرّر أنّ أهمّ خطوة مستقبليّة للإسرائيليّين هي دراسة النّكبة، لأنه لن يحدث سلام حتّى يعلم كل الإسرائيليّين ما حَدَثَ عام ١٩٤٨. السياسة هي عالم من المساومات، لا يمكن الرّجوع نحو الخلف، فأنا لا أعتقد أنّ ترك أطفال مخيّمات اللاجئين في كلّ من غزّة، سورية ولبنان وغيرها على حالها، منذ عشرات السّنين وحّتى يومنا هذا، على أمل العودة لديارهم في يافا، حيفا، نابلس وباقي أجزاء فلسطين التّاريخيّة، لا أعتقد أنّ هذه خطوة صحيحة. هذه تراجيديا ».

الفلسطينيين لن يحبّوا هذه المقولة. أودّ أن أقول لك شيئًا مهمًّا جدًا، في التّاريخ أنا لا أُساوِمُ، في السّياسة نعم، فالسّياسة هي فنّ المساومة الذي يصبو للوصول إلى الحقيقة والعدل، التي لن نصلها أبدًا. أمّا التّاريخ فهو أيضًا يصبو إلى الحقيقة، التي لن يصلها، لكن هدفي الأوّل كمؤرّخ هو محاولة الإمساك بحقيقة منطقيّة لا تعتمد الأساطير وتفنّد كلّ ما هو غير منطقيّ. في السّياسة تتوجّب المحاولة، فعلى سبيل المثال لا الحصر، في هذا السّياق، يتوجّب على كلّ إسرائيليّ دراسة النّكبة، كما يتوجّب على كلّ أوروبيّ دراسة الهولوكست/المحرقة النّازيّة. وهنا أنا لا أُقارن بين المحرقة وبين النّكبة، فعلى الرّغم من كلّ الخطاب الصّهيونيّ، إلاّ أنّه لم يحتو على أيّ مشروع مُمَنْهَج لإبادة جماعيّة للشعب الفلسطينيّ، كما فَعَلَت النّازيّة. لكنني أكرّر أَنّ أهمّ خطوة مستقبليّة للإسرائيليّين هي دراسة النّكبة، لأنه لن يحدث سلام حتّى يعلم كل الإسرائيليّين ما حَدَثَ عام ١٩٤٨. السياسة هي عالم من المساومات، لا يمكن الرّجوع نحو الخلف، فأنا لا أعتقد أنّ ترك أطفال مخيّمات اللاجئين في كلّ من غزّة، سورية ولبنان وغيرها على حالها، منذ عشرات السّنين وحّتى يومنا هذا، على أمل العودة لديارهم في يافا، حيفا، نابلس وباقي أجزاء فلسطين التّاريخيّة، لا أعتقد أنّ هذه خطوة صحيحة. هذه تراجيديا.

كيف لكَ أن تعلّل هذا التّناقض البادي بين موقفك وبين رفضك حقّ العودة الفلسطينيّ الذي يُعْتَبَرُ عماد الثّوابت الفلسطينيّة؟

إذا كانت لديّ الجرأة العارمة لانتقاد المشروع الصّهيونيّ بهذه الطّريقة، فالسّياسة لا تعود إلى الوراء، فبرغم وجوب إصلاح التّراجيديا الفلسطينيّة، يافا وحيفا لا يمكنهما أن تتحوّلا إلى قرية قبل ١٩٤٨، لا يمكننا أن نعيد العَجَلَةَ إلى الوراء.

موقفي بهذا الصّدد واضح وحادّ، حيث أعتقد أنّ الفلسطينيّين هم أصحاب الحقّ على الأراضي وهم السّكّان الأصلانيّون لفلسطين–إسرائيل، لأنّهم، ببساطة كانوا/تواجدوا هناك، وتمّ تهجيرهم وهروبهم من أراضيهم فقط قبل ٦٥ عامًا. على الرّغم من قناعتي بأحقيّة الفلسطينيّين الشّرعيّة التّاريخيّة على هذه البلاد، إلاّ أنّني لا أعتقد أن حقّ العودة من ناحية سياسيّة هو أمر واقعيّ، فالحديث يدور اليوم عن ٥–٦ ملايين لاجئ فلسطينيّ، وكَمَن يعيش في ظل النّظام الإسرائيليّ، هل تعتقد أنّ اليهود الإسرائيليّين، اليساريّين اللطيفين منهم حتّى، سيوافقون على مشروع سياسيّ يتحوّلون فيه بلحظة إلى أقليّة تتنازل عن سيادتها؟ من يفكّر سياسيًا، يعرف أنّ الأمر غير قابل للتطبيق السّياسيّ الواقعيّ. دعنا لا نفكّر بالشّعارات وبالمثاليّات.

ماذا عن حقّهم، أعاود سؤال ساند ثانية

لا يمكن إنكار حقّهم، إسرائيل مسئولة مباشرة تجاههم، هي مدينة جدًا للاجئين الفلسطينيّين، ولن يكون سلام بدون تسوية مشكلة اللاجئين. على إسرائيل أن تقف على رأس حملة لمنح تعويضات عادلة للفلسطينيّين المهجّرين على ما أُخِذَ منهم. أعتقد أنّه على إسرائيل استقبال عدد محدّد من اللاجئين الفلسطينيّين.

يوجد تناقضان مجازيّان رئيسيّان في المجتمع الإسرائيليّ، فلا يمكن أن تقول، كاليسار الإسرائيليّ، أنّ إسرائيل هي دولة يهوديّة–ديمقراطيّة، بالنّسبة لي هذا اصطلاح إرداف عكسيّ (Oxymoron) فأيّ ديمقراطيّة هي التي تتجاهل ٢٥٪ من سكّانها. أي ديمقراطيّة تمارس الاحتلال. هذا تناقض. إسرائيل ديمقراطيّة هي دولة تحترم وتمنح حقوقًا متساوية لكافّة مواطنيها، على اختلاف دياناتهم، قوميّاتهم ولغاتهم.

«فكرة اليساريّين العرب واليهود المنادية بدولة ثنائيّة القوميّة، هي فكرة مسلية لا أكثر ولا أقل، حيث أنّ دولة ثنائيّة القوميّة تتطلّب موافقة الإجماع اليهوديّ على هذا المطلب، هل تظنّ أنّ الإسرائيليّين سيوافقون على هكذا خطوة؟ يمكن للعالم، لربما، أن يفرض تراجعًا على دولة إسرائيل حتى حدود حزيران ١٩٦٧، لكن لا يمكن لكلّ العالم أن يفرض على إسرائيل دولة ثنائيّة القوميّة».

حُلْمي، الذي على ما يبدو لن يَتَحَقَّقَ، هو أن تتحوّل دولة إسرائيل إلى اتّحاد كونفدراليّ يشمل كافة مواطنيه.

إرداف عكسيّ آخر، هو الاعتراف بدولة إسرائيل، وبذات الآن الاعتراف بحقّ العودة الفلسطينيّ. حيث أنّ كلّ إنسان ذكي يعلم أنّ الحديث يدور عن كميّة من الفلسطينيّين إذا عادوا لوطنهم فإنّ دولة إسرائيل لن تظلّ دولة إسرائيل. زملائي اليساريّون يقرّون بوجود حق العودة دون عودة، لا أحبّ هذه الصّياغات، فالحقّ هو حقّ، وللفلسطينيّين حقّ على كافّة فلسطين، ويتوجّب على إسرائيل أن تدفع لهم تعويضًا قبالة هذا الخسران وهذه التراجيديا، وأكثر من ذلك، عليها إدخال كميّة رمزيّة من الفلسطينيّين اللاجئين إلى داخل حدودها. هذا تناقض أن تعترف بدولة إسرائيل وأن تعترف بحقّ العودة.

بذات الآن، أنا أُكِنُّ قَدْرًا أكبر من الاحترام والتّقدير للفلسطينيّين الذين لا يعترفون بدولة إسرائيل، ويتمسّكون بحقّ العودة.

المشكلة مركّبة جدًا، لا يمكن حلّ النّزاع دون حلّ قضيّة اللاجئين. فكرة اليساريّين العرب واليهود المنادية بدولة ثنائيّة القوميّة، هي فكرة مسلية لا أكثر ولا أقل، حيث أنّ دولة ثنائيّة القوميّة تتطلّب موافقة الإجماع اليهوديّ على هذا المطلب، هل تظنّ أنّ الإسرائيليّين سيوافقون على هكذا خطوة؟ يمكن للعالم، لربما، أن يفرض تراجعًا على دولة إسرائيل حتى حدود حزيران ١٩٦٧، لكن لا يمكن لكلّ العالم أن يفرض على إسرائيل دولة ثنائيّة القوميّة. الاحتمال الأوّل ضعيف جدًا. الاحتمال الثّاني يقترب من الصّفر. هل سيوافق اليهود أن يتحوّلوا إلى أقليّة؟ بالطّبع لا.

إحدى المشاكل الكبرى في الحداثة هي التّعريف الذّاتيّ، الشّعور بالانتماء، هل تظنّ أنّ اليهود سيوافقون على أمر من هذا القبيل. أتكلّم معك سياسة الآن. الوضع في الضّفّة الغربيّة وفي غزّة أصعب بكثير من أوضاع عرب الدّاخل، فأنت تعيشُ على سبيل المثال لا الحصر، في دولة أنت فيها مواطن من الدّرجة الثّانية، مقصيّ عن التّيّار المركزيّ (الاقتصاديّ والثّقافيّ)، لكن المواطن في الضّفّة الغربيّة وفي غزّة يعيش بدون أيّة حقوق إنسانيّة أوّليّة، لا حقوق مواطن، لا حقوق سياديّة، دون مستوى معيشيّ، دون مياه، في الوقت الذي يسرقون له أرضه طيلة الوقت بشكل مُمَنْهَج. أظنّ أنّ مشكلة المواطن في الضّفّة والقطاع أكثر تركيبًا وقسوة من المواطنين الفلسطينيّين داخل إسرائيل. أؤمن بوجوب كلّ جهد يتطّلبه الأمر منّا جميعًا بغية إنهاء الاحتلال الإسرائيليّ، أمّا ماذا سيحدث بعد إنهاء الاحتلال، فأنا لست متفائلاً بعالم ورديّ، لكن على خلاف عاموس عوز واليسار الصّهيونيّ الإسرائيليّ، الذي يريد التّحرّر من الاحتلال لأجل أن ينالوا دولة يهوديّة ويحافظوا عليها. أنا لا أنتمي إلى هذا المعسكر. أعتقد أنّ هذه الدّولة من المفروض أن تكون لَكَ أكثر من أيّ يهوديّ آخر في العالم أجمع. أعتقد أنّ على دولة إسرائيل أن تكون دولة كلّ مواطنيها الإسرائيليّين. أعتقد أنّه على الدّولة أن تمنحك إمكانيّة أن تكون فلسطينيًّا وإسرائيليًّا بنسبة كاملة وبكل القوّة، يجب ألاّ تتنازلوا لهم بقولكم «أنا فلسطينيّ أعيش في دولة إسرائيل»، هذه الصّياغة ترضيهم، هكذا يواصلون ممارسة سياستهم الصّهيونيّة، ستصّعب عليهم كثيراً حينما تقول لهم «أنا فلسطينيّ ١٠٠٪ وإسرائيليّ ١٠٠٪ وأريد أن أصير رئيس حكومة إسرائيل»، كما أوباما هو رئيس الولايات المتّحدة الأميركية اليوم.

أحلم بيوم ينجح العالم فيه بفرض الانسحاب على إسرائيل إلى حدود عام ١٩٦٧ ، وحينها علينا أن نكافح لإقامة اتّحاد كونفدراليّ بين فلسطين وإسرائيل. يجب العمل على تعزيز السّيادة الفلسطينيّة، يجب العمل على إصلاح العلاقة التّاريخيّة المشوّهة بين الفلسطينيّين والإسرائيليّين، بين اليهود والعرب. يتوجّب إقامة اتّحاد كونفدراليّ لأنه لا مجال للعيش بدون العرب في الشّرق الأوسط، وهل تعلم

«أحلم بيوم ينجح العالم فيه بفرض الانسحاب على إسرائيل إلى حدود عام ١٩٦٧، وحينها علينا أن نكافح لإقامة اتّحاد كونفدراليّ بين فلسطين وإسرائيل. يجب العمل على تعزيز السّيادة الفلسطينيّة، يجب العمل على إصلاح العلاقة التّاريخيّة المشوّهة بين الفلسطينيّين والإسرائيليّين، بين اليهود والعر ».

أيضًا؟ أتواجد الآن في باريس، وأعتقد أنه لا يمكن العيش في باريس بدون عرب. بدلاً من صهيونيّة إسرائيل يجب بناء ديمقراطيّة، إخلاء المناطق المحتلّة، ومساعدة الدّولة الفلسطينيّة بالنّهوض، والبدء ببناء اتحاد كونفدراليّ، الذي يتطلّب مراحل تدريجيّة، لنصل في النّهاية إلى اتّحاد كونفدراليّ، يمكن لكل شخص من الطّرفين العيش حيثما يرغب.

ماذا بالنّسبة لحق العودة اليهوديّ الذي تمارسه إسرائيل تجاه المهاجرين إليها؟

فليكن معلومًا للقارئ العربيّ، أنني ضدّ قانون العودة اليهوديّ، لا أتقبّل حقّ العودة اليهوديّ بسبب سياسة إسرائيل ومبادئها الصّهيونيّة الخاطئة، كما لا أتقبّل حقّ العودة الفلسطينيّ بسبب استحالة تنفيذه سياسيًّا. إسرائيل لن تقبل بحقّ العودة الفلسطينيّ لعلمها أنّ تنفيذه سيلغيها. أريد ديمقراطيّة ليبراليّة على شاكلة اتّحاد كونفدراليّ يوفّر المساواة بين جميع مواطنيه. فبالضّبط كما أن مصر ليست للمسلمين، لأنها تشمل مسيحيّين، عليها أن تكون اتّحادًا كونفدراليًّا حرًّا ليبراليًّا، كذلك الأمر إسرائيل.

كمؤرّخ، أخطأتُ عدّة مرات خلال حياتي المهنيّة، فعلى سبيل المثال، أخطأتُ حينما ظننتُ أنّ النّاصريّة والحركة البعثيّة هي حركات قوميّة ستكوِّنُ شعوبًا، أخطأتُ. حيث أنّ البعثيّة فشلت في خلق أمّة سوريّة تاريخيّة قويّة وثابتة. والبعثيّة العراقيّة لم تنجح في خلق أُمَّة عراقيّة ثابتة. كان ينقص هذه الحركات قائدًا على شاكلة نابليون. يجب التّنويه إلى أنّ النّاصريّة المصريّة نَجَحَت أكثر في خلق أُمَّة مقارنةً بالبعثيّة. القوميّة السّوريّة والحركة البعثيّة هما فشل ذريع، واليوم نرى هذا الأمر يتجلّى في الأحداث الدّموية. ظننتُ أنّه في الخمسينات ستقوم هذه الحركات بخلق قوميّة حديثة مع مرجعيّة تاريخيّة ثابتة، وأخطأتُ. لم ينجحوا في فصل الدّين عن الدّولة، لم ينجحوا في تخطّي الحمائليّة والقبليّة والطّائفيّة وما إلى هنالك.

بالأمس أجريتُ محادثةً مع طالب فلسطينيّ بعد إحدى محاضراتي في فرنسا، وهو طالب فرنسيّ من أصل فلسطينيّ لعائلة مهَجَّرين. توجّه هذا الطّالب اللاجئ إليّ سائلاً: «يعني أنت لا توافق على عودتي إلى حيفا». أجبتُهُ: «نعم أوافق أن تعود إلى حيفا، كانت حيفا لعائلتك، لكنني أقول لك بأسف كبير أن احتمال عودتك سياسيًّا، كمواطن وليس كسائح، يقترب إلى الصّفر».

أجد لدى الفلسطينيّين أمرًا مثيرًا للغاية، فعلى الرّغم من حدّة مواقفي، صراحتي، وعدم مواربتي الحقيقة، أجدهم يتقبّلون رأيي، يصغون، يثقون بي. لربّما أنا على خطأ.

في عام ١٩٤٨ حَصَلَت كوارث تراجيديّة أُخرى بموازاة النّكبة، فعلى سبيل المثال تهجير أكثر من مليوني مسلم إلى باكستان، والكثير من الحروبات والتّهجيرات في شرق أوروبا، لا يوجد أي كارثة تراجيديّة في هذه السّنوات تتشابه مع التّراجيديا الفلسطينيّة، حيث أنّ اللاجئين في غالبيّة هذه الحالات التراجيديّة لجئوا إلى دولة قوميّة لهم، ورويدًا رويدًا اندمجوا في الدّولة الجديدة، في باكستان والهند، اللاجئون الألمانيّون من ألمانيا الشّرقيّة، اندمجوا في ألمانيا الأُخرى. في الحالة الفلسطينيّة، لم يتمّ استيعاب اللاجئين في العالم العربيّ، لأنّ العالم العربيّ لم يرغب بهم، وأنوّه هنا أنني لا أتملّص من مسؤوليّة دولة إسرائيل عن قضيّة اللاجئين، لكن، عذرًا، ماذا يساوي هذا التّضامن العربيّ؟ ماذا يساوي أن يترعرع أطفال فلسطينيّون في مخيّمات لاجئين لبنانيّة وسوريّة، دون أدنى شروط الإنسانيّة؟ حينها، ماذا يساوي التّضامن العربيّ؟ حتّى لو كانت إسرائيل المسئولة عن اللاجئين، أعتقد أنّ على الفلسطينيّين التّوصّل إلى

«ينصّ الفكر الصّهيونيّ على أنّ هذه البلاد هي بلاد لليهود، أصحاب الحقّ التّاريخيّ على هذه البلاد، من الهيكل الأوّل، وما إلى ذلك، تكمن مشكلة اليسار الصّهيونيّ في أنّ المدن المقدّسة وفقًا للنصوص الدّينيّة التي تُمْلِي عليهم الأسطورة/الرّواية التّاريخيّة، هي ليست مدن إسرائيل، غالبيّتها في فلسطين: القدس، الخليل، بيت لحم، نابلس، وليس تل-أبيب، نتانيا وحيف».

مساومة، كما حَصَلَ في المبادرة العربيّة، عام ٢٠٠٢، الاعتراف بإسرائيل. كان هناك بند نصَّ على أنّ قضيّة اللاجئين يجب أن تحلّ بتعاون واتّفاق متبادل بين الطّرفين، والمثير هو أنّ منظّمة التّحرير الفلسطينيّة وَقَّعَت على هذا النّصّ. كمؤرّخ، أقول لكَ، وَقَّعت على هذه الاتّفاقيّة دولة لبنان، ومنهما ممثّلين عن حزب الله في الحكومة. التّراجيديا هي أنّ إسرائيل لم تردّ ولا يهمّها الأمر لأنّها لا تستطيع الاستغناء عن المناطق المحتلّة.

ينصّ الفكر الصّهيونيّ على أنّ هذه البلاد هي بلاد لليهود، أصحاب الحقّ التّاريخيّ على هذه البلاد، من الهيكل الأوّل، وما إلى ذلك، تكمن مشكلة اليسار الصّهيونيّ في أنّ المدن المقدّسة وفقًا للنصوص الدّينيّة التي تُمْلِي عليهم الأسطورة/الرّواية التّاريخيّة، هي ليست مدن إسرائيل، غالبيّتها في فلسطين: القدس، الخليل، بيت لحم، نابلس، وليس تل-أبيب، نتانيا وحيفا. إذا تواجد «موطن تاريخيّ» فإنّه لم يكن بتاتًا على منطقة السّهل السّاحليّ، لم يهتمّ اليهود القدامى بمنطقة الشّاطئ السّاحليّة بتاتًا، أي أنّ «الموطن التّاريخيّ» لليهود هو داخل فلسطين، وكتابي الأخير يطرح هذا التّناقض الذي لا يعيه، أو يتجاهله اليسار الصّهيونيّ. لن تنجح الصهيونيّة بالتّراجع بسبب أساطيرها، وتراجعها إذا تمَّ فسيكون فقط بإملاءٍ دُوَليّ.

أنت تمزج بين الشّخصيّ والأكاديميّ، الأمر الذي يجعل لَكَ خَطًّا كتابيًا مميزًا خاصًا بك في مؤلّفاتك. بين الأيديولوجيا، الموقف، المؤسّسة، وكيف للمؤرّخ أن يمتنع من تحوّله لبوق سلطة؟

أنا لا أمزج، أنا أَوَطِّرُ، أبدأ وأُنهي بالشّخصيّ، وهل تعلم لماذا، لأنني أُحبّ أن ألعب البوكر المفتوح في ألألعاب الورقيّة، في اللعبة أطرح أوراقي مكشوفةً على الطّاولة، كل مؤرّخ مؤدلج. حينما قررّت التّعامل مع رواية التّاريخ الصّهيونيّ، قرّرت اللعب على طريقة الأوراق المكشوفة: أن أقول من أنا، ما هي بوصلتي الأخلاقية، وما هو نطاق انطلاقي. على الدّوام يوجد علاقة بين الجغرافيا وبين الكتابة التّاريخيّة. لم أعرّف نفسي على أني معادٍ للصهيونيّة، لكني لا أؤيّدها ولم أعتنقها في يوم من حياتي، لا أعتقد أنّ بإمكان أي مؤرّخ يهوديّ صهيونيّ أن يكون جادًا في بحث الاستعمار الصّهيونيّ، وذلك لموقفه المسبق، فهناك تناقض مطلق في الأمر. كلّ المؤرّخين الأكاديميّين وغير الأكاديميّين اليهود الذين يطلقون عليهم اسم باحثي «تولدوت هيشوف» (تاريخ اليشوف)، كلّهم صهاينة على حدّ سواء. أنا لا أستخدم كلمة «قادمين جدد»، بل «مهاجرين»، كوالديّ الذين بَصَقَتْهُم أوروبا على فلسطين. يجب أن نتعامل مع المصطلحات بدقّة، بمسؤوليّة، بحذر. فأنا على سبيل المثال لا أستخدم بتاتًا كلمة أرض-إسرائيل، لأنها صهيونيّة مؤدلجة، أستخدم كلمة إسرائيل، حيث تتواجد تل-أبيب، كما تتواجد رام-الله في فلسطين.

من الصّعب جدًا أن يكون المؤرّخ مستقلاً. لا أوهام لديّ. المؤسّسة هي التي ترعى المؤرّخ. غالبيّة المؤرّخين في العالم، تمّ توظيفهم في بناء القوميّات الحديثة. في الديمقراطيّات الليبراليّة، يمكننا أن نجد، نسبيًا، حكمًا ذاتيًا مستقلاً للمؤرّخين، حيث في حال حَصَلَ المؤرّخ على تثبيت وظيفيّ في الأكاديميا فمن الصّعب جدًا إقالته. في الأكاديميا، ما زال هناك نوع من الاستقلاليّة/الحكم الذّاتيّ، وفي سياقي أنا، قرّرت استغلال هذه الاستقلاليّة حتّى النّهاية، خاصّة بعدما تلقّيت التّثبيت الوظيفيّ، فلا شيء أهابه. لا أخاف من شيء، عندي تثبيت وظيفيّ في العمل. لا أصبو لطموح أكاديميّ أسمى من منصبي، لذلك لا أخاف بصق الحقيقة في وجه المجتمع الإسرائيليّ بكافّة أطيافه.